البلدان العربية

(تابع ما قبله)

متصرفيّة عسير

بلاد بين اليمن جنوباً وارض الحرمين شمالاً وهي جبال وسهول امّا الجبال فطيّبة الهواء كثيرة المياه ولكنها عسرة المسالك وامّا السهول فخصيبة جيدة المراعي جيدة التربة ينبت فيها كل انواع الحبوب والقطاني . وسهول يشة الى جهة الشرق قد تستغني بمحصولاتها الطبيعيّة عمّا يرد الى الحجاز من الطعام عن طريق جدّة والقنفذة على شطوط البحر الاحمر او عن طريق الحسا والكويت على شطوط الخليج الفارسي . والعرب يخصّونها باسم الحجاز فاذا اطلقوا التسمية فهموا منها هذا القسم جنوبي الطائف حتى تصل ولاية اليمن (انظر بوركهارت - البدو والوهابيون الجزء الثاني طبع لندن وجه ١٣٢) وهو ما يُراد بمتصرفية عسير الآن

وعليه فولاية الحجاز تشتمل على ثلاثة اقسام القسم الاول الشمالي ويشمل البلاد الواقع فيها طريق الحج حتى تصل وادي القرى بقرب المدينة . والقسم الثاني المتوسط ويشمل البلاد بين مكة والمدينة ويعرف بارض الحرمين او بلاد الحرمين والثالث الجنوبي ويشمل البلاد بين ارض الحرمين وبين اليمن وهو متصرفيّة عسير

في هذا القسم اعني متصرفيّة عسير قبائل كبيرة كثيرة اشهرها بنو غامد وظهران وبنو سالم وبنو عسير واشهر هذه الثلاث بنو عسير وبلادهم جبليّة متوعرة وبهم سُمّيت المتصرفية الآن وهؤلاء العسيريون فيهم ما يزيد على الاثني عشر بل والخمسة عشر الف محارب على ما ارجّح . وكان ابو نقطة من شيوخهم المشهورين في ايام محمد علي باشا الكبير ثم كان بعده طعمة وهذا كان من كبار رؤساء الوهابيين من اعلاهم همّة واكثرهم رجالاً في موقعة كُلاخ او بيصال وهي الموقعة التي انتصر فيها محمد علي باشا سنة ١٨١١ على الوهابيين وقتل جموعهم وكانوا ما يزيد على الخمسة والعشرين الفاً قتلهم من العسيريين . ثم تابع انتصاره هذا فتتبّعهم الى تربة وبيشة ومن بيشة توجّه غرباً فاخترق جبال العسيريين واستولى على قلعتهم المعروفة بقلعة طور بعد معركة شديدة وما زال حتى بلغ شطوط البحر الاحمر قرب القنفذة ثم رجع من هناك الى مكة . ولما كانت البلاد جبلية طيبة الهواء كان اهلها اشدّاء ذوي بأس ونجدة فقد

حكى بوركهارت انهم وجدوا في موقعة يمسال كثيرين من قتلى المصريين وقد ربط كلٌّ منهم رجلهُ الى رجل صاحبهِ كي لا يفرّوا وكانوا قد تعاقدوا على ذلك وحلفوا عليهِ بالطلاق فلم يحنثوا . وروي عن اسلافهم مثل ذلك اثناء الحملة الرومانية التي وجّهها الامبراطور طرايانس الروماني حوالي سنة ٥ بعد المسيح لفتح البلاد العربية

وبالاجمال يقال ان هذا القسم من الحجاز ولاسيما بلاد عسير يشبه بلاد اليمن الجبلية في تربتهِ وهوائهِ ومائهِ وشدة شكيمة اهلهِ ولا يبعد انهُ يشبهها في طبقات ارضهِ وما يحتويهِ من معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد . ومتصرفية عسير كانت ولا تزال تابعة لولاية الحجاز ومن املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع ومن الضروري ان يحرص عليها ولاتنا وقواد جيوشنا فانها كاهلُ الحجاز وحصنهُ المنيع . الاَّ ان الثورة الاخيرة قد فتحت فيها ثلمةً ولا يستبعد مع الاهمال وترك اليقظة ان يدخل منها داخل على حين غفلة فيدّعي بعدها بحقوق الحماية او مدّعيٌ آخر يشوّش علينا فيها سلامنا وحسن جوارنا

ولاية اليمن

اليمن — وقد سماها اليونان والرومان قديمًا العربية السعيدة — هي مهد الجنس السامي في الراجح ومركز تمدّنهم القديم ومنشأ الدول العربية العظيمة قبل الاسلام وقد شغلت الآثار مؤخرًا عما وجد خواطر كثيرين من اهل البحث ومن جملتهم الاستاذ سايس الى القول بان اليمن سابقة في تمدنها على مصر وبابل وانها هي بلاد بُنت او فوط التي هاجر منها الى مصر اسلاف الفراعنة العظام وحملوا معهم اليها العلم والحكمة والزراعة والصناعة والتجارة . ومنها ايضًا في الراجح كان اسلاف البابليين والاشوريين الذين حملوا في مهاجراتهم الى تلك البلاد ما حملوهُ الى مصر من العلم والصناعة كما أنَّ منها او مما جاورها من بلدان الجزيرة كان معظم الجاليات التي استعمرت شواطئ المتوسط في سوريا ولاسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا وفرنسا وشطوط افريقيا مما يقابل جبل طارق حتى تصل الى مصر والسويس . وبالاجمال لا يستبعد ان تكون شبه جزيرة العرب وبالاخص العربية السعيدة اي اليمن ام التمدن القديم في كل اسيا الغربية واوربا وافريقيا

هذه البلاد هي الآن جزءٌ من مملكتنا العثمانية وكان ممكنًا ان تكون من اهم اجزائها وافضلها واغناها لانها تجمع الى طيب الهواء وجودة التربة وكثرة المعادن والحجارة الكريمة اجمل المناظر الطبيعية وافخمها . جبالٌ شاهقة من افخم الجبال واغربها اشكالاً وهيئات لا ينقص ارتفاع بعضها عن الاربعة عشر الف قدم فوق سطح البحر واودية عميقة ولا اعمق منها .

ولا اغرب واعجب مما يجري فيها من المظاهر الجوية فانك ربما تنظر الى بعضها وانت على اسناد جبالها فتراها مملوءة سحباً وترى البروق تلمع تحت نظرك بين هذه السحب وتسمع قصيف الرعد ثم لا تلبث الغيوم ان تنقشع عن تلك الاودية فتراها تسيل مياهاً يحمل تيارها الشجر والحجر ايضاً ولعل القائل اشار بقوله

كأني حيث يبنا الدَّجْنُ تحتي فما انا لا أُطَلُّ ولا أُجادُ

الى مثل هذه الظاهرة اليمنية الغريبة والجميلة ايضاً

ليس جمال المناظر الطبيعية وان بلغ مهما بلغ ولا ارتفاع الجبال وان زادت على ارتفاع حملايا ولا عمق الاودية وان بلغ قرارة الهاوية ليس شيء من كل ذلك بالامر الكبير لولا ان غنى البلاد الطبيعي في معادنها وزرعها وضرعها ونشاط اهليها ايضاً يناسب ما المعنا اليه من نضامة جبالها وجمال اوديتها وروعة جلالها

مساحة اليمن واقسامها

لا نقل مساحة اليمن بما فيه تهامة فيما ارجح عن المئة وعشرين الف ميل مربع ولا نزيد في ما اظن عن المئة والخمسين الفاً منها بلاد جبال وخصب وهواء طيب ما يزيد عن الثمانين الف ميل مربع في اقل تقدير والبقية بلاد رمال وحرّ شديد ووبالة الاّ بعض الواحات على جوانب اوديتها العظام مور ومُرَّدُد وسهام ورمع وزبيد والموشج والمَوْزِع وعديم وشلصان ورغادة ومتيف والصُّبَيب ويافع وهي اودية تسيل ماء غزيراً ازمان المطر الاّ ان معظمها تشربهُ رمال تهامة قبل ان يصل الى البحر. وتقسم اليمن اجمالاً الى قسمين كبيرين تهامة والجبال. وتهامة تهامتان تهامة الغربية وتهامة الجنوبية اما تهامة الغربية فتمتد على موازاة شطوط البحر الاحمر بينهُ وبين الجبال وعرضها في الأكثر لا يزيد عن الثلاثين ميلاً وتتسع احياناً فيبلغ الخمسين والستين وقد يبلغ ما فوق ذلك وهو نادر. ومن موانئ تهامة هذه لحيا والحديدة ومخا واشهر مدنها زبيد على متوسط المسافة بين البحر والجبال وربما سميت باسم الوادي المبنية الى جانبهِ وميادهُ عدٌ لا تنقطع

واما تهامة الجنوبية فتمتد من بوغاز باب المندب على شواطىء خليج عدن ما يزيد عن المئتي ميل طولاً ويختلف عرضها بين الخمسين والمئة ميل ومن اشهر موانيها عدن وهي الآن في يد الانكليز اختلفوا مع حاكمها سنة ١٨٣٩ فباغتوا حاميتها ودخلوا حصنها عنوة فرأوا معقلاً ولا احصن وموقعاً تجارياً ولا اهم فاوطنوها في عداد املاكهم فاصبحت اليوم وحصونها من امنع حصون الدنيا وميناها من احسن الموانئ واوسعها فتحولت اليها من ثم معظم تجارة

اليمن بعد ان كانت ترد الى مخا والحديدة . اما مخا فانت تجارتها وتندرس عمرانها او كاد يندرس ولما الحديدة فانما ابقى على عمرانها انها مركز حكومة تهامة وميناء صنعاء الحربي وان البلاد التي هي ميناؤها بعيدة ايضاً عن عدن بعداً شاسعاً . ويقال في تهامة اجمالاً انها مرضٌ جيد ايام الشتاء والبرد الشديد في الجبال ولكنها في ايام القيظ تنورٌ متوقد

واما اليمن الجبال فتنقسم الى اقسام كثيرة تعرف قديماً بمخالف اليمن كل قسم منها مخلاف وكان عليه في الغالب امير او شيخ يخضع لامير صنعاء اذا كان هذا قوياً ذا حول وطول او يستقلُّ عنهُ اذا وجد من نفسه قوة ومن متبوعه غفلةً وضعفاً . واليك المخاليف التي ذكرها الهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب نذكرها لك كما ذكرت في فهرست الكتاب مرتبة بحسب الحروف الابجدية لا بحسب مواقعها الطبيعية : مخلاف آل ذي جُرَة . مخلاف اقيان . مخلاف أَلهان . مخلاف ذي جرة وخولان . مخلاف جيشان . مخلاف حَرَاز . مخلاف حَضُور . مخلاف خولان . مخلاف ذَمَار . مخلاف ذي رُعَين . مخلاف رَدَاع مخلاف رداع وثلث . مخلاف السَّحول . مخلاف شِبام . مخلاف شَبوة . مخلاف الشرف الاعلى . مخلاف عَنْز . مخلاف بني عامر . مخلاف العَرْد . مخلاف لاعة . مخلاف مأذن مخلاف مأذن وحملان . مخلاف مأرب . مخلاف المعافر . مخلاف المَعْلَى . والذي يرجح عندي ان هذه المخاليف هي المشار اليها في نبوة اوريا بمالك حاصور او « حضور » ولعلَّ السيادة في ذلك الوقت كانت لمخلاف حضور وهو على مقربة من صنعاء ولا يبعد ان صنعاء كانت المدينة العظيمة في هذا المخلاف الذي كان فيه مقرّ السيادة او الامارة العظمى حينئذٍ

صنعاء وما حواليها

موقع صنعاء شرقي الحديدة بميلة الى الشمال وشمالي عدن مع بعض الميلة الى الغرب وتبعد عن الاولى مئةً وخمسين ميلاً وعن الثانية مئتين وسبعين ميلاً . وهي قلب بلاد اليمن ومركز دائرتها موقعاً وتجارة وسياسةً وهي مبنية على قاع متسع في غربي جبل نقم . وينشعب من هذا الجبل هضبةٌ قارعةٌ عليها قلعةٌ او حصنٌ يُطل على المدينة ويحيط عليها والمدينة ثلاثة احياء حيُّ العرب والترك وفيه الاسواق ومركز الحكومة وبيوت الاهلين وحيُّ اليهود وهو منفصل عن الحيِّ الاول بسيف من الارض القاحلة ويحيط به سورٌ لهُ على حدة وحيٌّ بير العصاب وفيه الجنائن وقصور الاغنياء من عرب واتراك ويحيط بهذه الاحياء كلها سور من الآجُرِّ المجفف بالشمس الاَّ ان معظم الابراج والحصون على السور مبني من الحجر الصلد . وللمدينة اربعة ابواب باب على كل جهة من الجهات الاربع وعدد سكانها على ما يُرَجَّح

يبلغ فخراً من خمسين الف نسمة منهم عشرون الفاً يهود (انظر كتاب هرس «رحلة في اليمن» طبع لندن سنة ٨٩٣ وجه ٣١٢) والمدينة تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن سبعة آلاف وار بعمئة قدم

قلنا ان صنعاء واقعة في قلب البلاد اليمنية عدن الى الجنوب وصعدة ونجران الى الشمال والحديدة الى الغرب ومأرب عاصمة بلاد سبا قديماً الى الشرق. وفي مأرب هذه السد العظيم الشهير المعروف بسد مأرب وعرض هذا السد او ثخنه مئة وخمس وسبعون خطوة وطوله نحو الميلين على الاقل. ويصل بين الجبلين على طرفي الوادي واما علوه فكان يزيد على المئة والعشرين قدماً. وما زال قائماً نحواً من عشرين قرناً تقريباً. ومن اراد فليراجع وصفه في مروج الذهب للمسعودي فانه من احسن واضخم وانفع ما بناه الاقدمون وليس سد اصوان الحالي في جانبه الا ولداً صغيراً بالنسبة الى الجبار العظيم

جاء في شرح قصيدة ابن عبدون طبع ليدن وجه ٩٧ و٩٨ — وقد نقل الشارح ما كتبه عن المسعودي — ما نصه

كانت بلاد مارب جنة واحدة متصلة «وكانت العمارة فيها ازيد من مسيرة شهرين للراكب الجد وكانوا يتنسمون النار بعضهم من بعض مسيرة ستة اشهر وكانت المرأة اذا ارادت ان تجتني من ثمرها شيئاً وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشي تحت الثمار وهي تنزل او تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمتلي مكتلها مما شاءت من الثمر الذي يتساقط طيباً»

هذه العبارات تشير الى العمران العظيم الذي كان للبلاد العربية اليمن ونجد والحجاز وارض البحرين. ولا أشك ان العمران كان بحيث يجوز ان يوصف بمثل الوصف المار ذكره — اذا تسامحنا مع الكتاب ذوي الخيلة الذين كانت تحركهم محركات من الانفعالات عندما كانوا يكتبون ما يكتبون — لان في الآثار الباقية من الادلة ما يصدقه واليك منها

(اولاً) السدود التي على شاكلة سد مارب فانها كثيرة جداً تصادفها حيثما سرت في اليمن. قال الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب ما نصه

«وبيخضب العلو على ما خبرني ابو غالب بن ابي العباس بن ابي غالب الغلي ثمانون سداً قد ذكرنا عدة في كتاب الاكليل كبارها وفيها يقول ثبع

وبازبوة الخضراء من ارض بخضب ثمانون سداً تقلس الماء سائلا»

(ثانياً) ما يرى من المصانع والكروف واحدها كريف وهي مخازن للماء منقورة في الصخر الصلد من اشهرها ما ذكره الهمداني في باب مآثر اليمن قال «ومنها كريف يسمى

الوقيت منقور في الصفا الاسود وعمقهُ في الارض خمسون ذراعاً وعرضهُ عشرون ذراعاً والطول خمسون ذراعاً محجوز على جوانبهِ جدار يمنع السقوط فيهِ وكربك درداع يكون ستمئة ذراع في مثلها» (الهمداني وجه ٧٨) اه . وهذه الكُرُف او البُرك كثيرة جداً في اليمن تصادفها حيثما سرت

(ثالثاً) الخرائب القديمة واليك بعض ما ذكرهُ الهمداني منها قال «ومنها خربة سلوق وكانت مدينة عظيمة بارض خدير واسم بقعتها اليوم حيل الربة وهي آثار مدينة عظيمة فيها خبث الحديد وقُطاع الفضة والذهب والحُلَى والنُقُد واليها كانت العرب تنسب الدروع السلوقية . ومنها جبل في مشرق وُحاظة في راس الجبل جثوة قصر منهدم لا يزال يوجد فيهِ الجوهر والذهب والناس يغزونهُ كما يغزون خربات الجوف » (الهمداني وجه ٧٨ و ٧٩)

(رابعاً) كثرة المعادن فانهُ في نجد وحدها من المعادن ما ذكرهُ الهمداني صفحة ١٥٣ حيث قال «ومعادن اليمامة وديار ربيعة التي تولتها اليوم عقيل بن كعب معدن الحَسَن والحَسَن قرن اسود مليح وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الحُمَيْر بناحية عمامة وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الغُبَيب عن يسار هضب القليب . ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب . ومعدن العوسجة من ارض غني فويق المغير ببطن السِرداح . ومعدنا شمام الفضة والصُفْر . ومعدن تياس ذهب مُخلِفٌ بتياس . ومعدن العقيق معدن المحجة بين العُمق وبين أُقَيْمية . ومعدن بيشة . ومعدن الحجيرة . ومعدن بني سليم . فهذه معادن نجد » انتهى

والذي ارجحهُ ان المعادن من كل الانواع ولاسيما الذهب والفضة والنحاس والحديد هي في اليمن وحضرموت اكثر منها في نجد . وفيهما ايضاً اي اليمن وحضرموت الفحم الحجري والبترول وانواع من الحجارة الكريمة

اذا احضر القارئ كل ما ذكرناهُ في ذهنهِ لم يصعب عليهِ بعد ذلك ان يتصور امكان وجود العمران العظيم الذي اشار اليهِ المسعودي في كلامهِ عن سد مأرب ونقلنا نتفة منهُ عن شرح قصيدة ابن عبدون ولا يصعب عليهِ ان يتصور ايضاً انهُ مثل هذا العمران يمكن ان يعود الى العربية السعيدة مع الايام فتصبح هي ونجد من افضل ولايات مملكتنا العثمانية الدستورية

عدد سكان اليمن

يقدرون عدد سكان اليمن العثمانية بين المليونين والثلاثة ملايين والمرجح عندي ان بلاد مأرب ونجران غير داخلين في هذا الاحصاء لان البلادين وان كانتا ضمن منطقة

املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع الى الآن فان سلطتنا الفعلية الحقيقية لم تتجاوز صنعاء الى الشرق والشمال الا مسيرة يوم او ما لا يزيد عن الثلاثين ميلاً في الاكثر واما ما وراء ذلك فكان ولم يزل ثابتاً لنا بالقوة لا بالفعل ولا يُعلم من احوالهم وعدد سكانهم شيء الا على سبيل التخمين. والراجح ان في بلاد مأرب ونجران واطراف اليمن ووادي دوامر (وكل هذه البلدان يجب ان تكون عثمانية ويمكن ان تكون عثمانية والحد الآن لا تجسر دولة من الدول غيرنا ان تدعي بشيء من الحماية على شبر واحد منها) ما يزيد على المليون فوق ما يقدّرون وعليه فسكان اليمن العثمانيون يزيدون الآن على الاربعة ملايين واذا تمّ الامن وبطلت من بينهم الحروب والمجاولات المستمرة فلا يمرُّ الا القليل من السنين حتى يتضاعف عددهم ثمّ يتضاعف ويتضاعف لان في البلاد من الغنى الطبيعي ما يقوم بالملايين الكثيرة

جبر ضومط

القوى العاقلة[1]

انا امام موضوع كبير لم اتأهل له لاني لست فسيولوجيا وانما غرضي الاكبر هو البحث عن مطلب لم يلتفت اليهِ الفسيولوجيون فيما اعلم الا وهو النور الذي يبصره الانسان عند الاغماض في الظلام من دون ان يكون لهُ مصدر خارجي فاقول تمهيداً لهذا المطلب

ان كنهَ العقل الذي تمتاز افراد الانسان بعضها عن بعض تمتاز كذلك انواع الحيوان بعضها عن بعض وتمتاز ادنى الحيوان عن الجماد

والحس الذي هو ادنى درجات العقل موجود في الجماد على صورة بسيطة لا تكاد تدرك هي الانفعال بقوى المادة فاذا ترقت الحياة عن الجماد ترقى هذا الحس فكان ارادة وذكراً وحكماً واستقراء واستنتاجاً الى غير ذلك من القوى العاقلة

وما ترقى الحيوان عن الجماد الا لانقسام الاعمال بين خلايا الحس فيهِ كأن تعمل كل طائفة منها عملاً خاصاً لا تتعداهُ بعد ان كانت تعمل الاعمال مشتركة قبل الارتقاء

ولا ينتظرن القارئ ان يتولّد المكروب رأساً من الجماد فانهُ لا صلة بينهُ وبين الجماد لارتقائهِ في سلم الحياة عنهُ ولكن قد ينتظر تولّد مكروب المكروب الذي يسبّب لهُ الامراض

(١) نشرنا هذه المقالة ليطلع القراء على ما يقوله عالم من علماء الشرق لم يدرس في المدارس الاوربية ولا رأى من مباحث علماء أوربا الا ما ينشر مترجماً عنهم على ما يظهر